



'Az al-Maghrib Ma'ninou.- *Salā "al-madīna al-muqfala".- Al-infitaḥ al-ḥadir 'alā al-Gharb min al-qasf ilā al-iḥtilāl, 1851-1912 (ar-Ribāt: Imprimerie Rabat Net, 2017), 326 p.*

عز المغرب معينو.- سلا "المدينة المقفلة"،
الانفتاح الحذر على الغرب من القصف إلى
الاحتلال 1851-1912م (الرباط: مطبعة الرباط
نيط، 2017)، 326 ص.

اهتمت دراسات جامعية وأخرى غير جامعية
بالتأريخ للمدن المغربية، فمکن هذا المجهود المزدوج
من مراکمة أبحاث ذات أهمية متباينة أغنت المكتبة

الوطنية، إذ انصبت على مقارنة موضوع المدينة في إطار إنجاز مونوغرافيات تاريخية،
فوظفت في تحقيق ذلك أدوات منهجية بغية دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي
والسياسي والثقافي للمدن، ورصد مظاهر تأثرها بمحيطها الدولي. وذلك بحکم وجود
المغرب على الطريق المؤدية إلى بحار الجنوب، إذ شكل مجال التقاء المصالح الأوروبية
وتضاربها، معظم الأحيان، مسرحاً رئيسياً للتجارة العالمية والسياسة الدولية. وكان
طبيعياً، أن يفرض هذا الوضع الذي ما فتئت أن تعقدت معالمه، على المخزن بذل جهود
مضنية لمقاومة المد الأوروبي بالمدن الساحلية، مرتكزا في ذلك على دور الزعامات القبلية
وإسهام النخب المخزنية الحضرية، أملا في مواجهة تكالب المد الأجنبي على الخطوط
الملاحية الأطلسية الرابطة بين هذه المدن.

وفي هذا الإطار يأتي كتاب الأستاذ عز المغرب معينو الصادر تحت عنوان: سلا
"المدينة المقفلة" الانفتاح الحذر على الغرب من القصف إلى الاحتلال 1851-1912م، عن
دار النشر الرباط نت سنة 2017م. ويقع المؤلف في 326 صفحة، ويتضمن سبع فصول
موزعة في ثلاثة أبواب مسبقة بمقدمة عامة، ومذيل بخاتمة. وتکمن أهمية هذا العمل في
تناول تاريخ مدينة سلا خلال الحقبة المعاصرة، وقد وقع الاختيار في إنجاز هذه الدراسة
التاريخية على تحقيق يمتد من مرحلة نهاية الجهاد البحري سنة 1851م إلى سنة 1912م،
سعى المؤلف من خلاله إلى رصد التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الطارئة
على المدينة، واقتفاء آثار الانعكاسات العامة للتدخل الأجنبي وعواقب توقف نشاط
الجهاد البحري على المجتمع السلوي حتى بداية الاحتلال الفرنسي للمدينة.

واستُهل الكتاب بمدخل عام يهم الحصيلة البيبلوغرافية والمشهد الطبيعي لموقع سلا من خلال المصادر التاريخية، مبرزاً أهم الثغرات المنهجية التي طالت بعض الكتابات السابقة حول تحديد موقع المدينة، إذ ربطها المؤلف بأهمية مجال مصب أبي رقراق، كإطار تاريخي مشترك لأربع مدن متجاورة (سلا-شالة-الرباط-الوداية). ثم طرح مسألة موقع مدينة سلا الغابرة، وربطها بأهميتها الاستراتيجية في تجارة شعوب البحر بالمجال الأطلنتي على عهد الإمبراطوريات القديمة، فاستند في ذلك إلى وجود بقايا لآثار مدينة مدفونة في الضفة المقابلة لمدينة شالة الأثرية.

وبالمقابل، أبرز المؤلف أهمية نشأة سلا الحادثة، واعتبرها منطلقاً لهجرات بشرية متلاحقة منذ العصر الإسلامي، إذ عمل الميريون على تحصين المدينة المذكورة أمام الغزو القشتالي المسيحي، مما مكنها خلال بداية العصر العلوي من استقطاب مجموعة بشرية لها وظائف متعددة، صنفها المؤلف إلى فئة من ذوي النزعة الحربية، وأخرى ذات الخبرة في التجارة والسياسة، وفئة ثالثة من ذوي العلوم الدينية. وانتظمت هذه المجموعات في أسر عريقة كانت لها أدوار حيوية بالمدينة الحادثة (الأسرة الصبيحية، أسرة المجاهد، أسرة معانة...). واعتبر الكاتب بأن مدينة سلا قد شكلت مجتمعا منفتحا على الهجرات بفعل انصهار عدد من القبائل الأمازيغية والعربية والأسر الأندلسية والمشرقية.

ولم تغفل الدراسة تداعيات هجرات قبائل حوز سلا، التي شكلت نسيجاً اجتماعياً متصارعا يحيط بالمدينة، إذ ظلت مجالاً لحماية الأفراد من مظالم الزعامات القبلية. كما أوضح الباحث مدى تأثير البنات الاجتماعية القبلية بالإرهابات الأولى لتسرب معالم الاقتصاد الرأسمالي، وذلك بفعل تحول الأنشطة القرصنية القائمة على المواجهة إلى التجارة السلمية المفتوحة مع أوروبا. فضلاً عن تأثير الكوارث الطبيعية وتعاقب سنوات القحط والجفاف، مما عمق مشاكل تزويد المدينة بالماء، فانكب سلاطين المغرب على إصلاح الشبكة المائية سنة 1712م. وفي هذا الصدد، أصدر المولى إسماعيل ظهائر تجبيس مداخيل صيد الحوث الشابل بواد أبي رقراق على ساقية الماء بسلا، بينما باشر السلطان المولى عبد الرحمان أعمال إصلاح شبكة قنوات الماء المغطاة، بالاستناد إلى خبرة معلمين من مدينة فاس، إذ كانت ساكنة سلا خلال فترة الأزمات المتلاحقة تعتمد على مياه الآبار.

وتناول المؤلف موضوع الشرائح الاجتماعية المهمشة والمنبوذة بسلا، فانطلق من زاوية النظرة إلى التاريخ من أسفل، فاستشرف من خلالها تقديم صورة عن خصوصيات

المجتمع السلوي وفتاته المهمشة، فأطلعنا على وضعية الأسرى المسيحيين والعبيد والرقيق الأبيض، والإماء، وسرد لنا بعض مظاهر الحياة اليومية لهذه الفئات وظروف اشتغالها في بيوت العائلات السلوية. كما أشار إلى إقبال أعيان سلا على الزواج بالإماء لقدرتهن على تحمل مشاق السفر صحبة أزواجهن. وقدم المؤلف معطيات تتعلق باستقرار أهل الذمة من اليهود بسلا بعد سقوط الأندلس، وتتبع توتر علاقتهم مع المسلمين وما ترتب عنها من شكاوي السلويين إلى السلطان المولى سليمان، الذي قرر ترحيلهم من وسط أحياء المسلمين سنة 1807م. ولم تفته الإشارة إلى انخراط عناصر هذه الأقلية في التجارة المحظورة، فارتفعت معها نسب الانحراف والإدمان، مما أثار غضب علماء وفقهاء سلا بإصدارهم لفتاوي تحرم استهلاك موادها، وعجل بالمخزن لاتخاذ قرار إغلاق المقاهي وعدم السماح لليهود ببيع الخمر في المدينة.

وفي سياق آخر، شكلت القرصنة في بعدها السياسي والاقتصادي والديني، نشاطا مميزا لفرات تاريخية بالمغرب، وظلت سلا إلى حدود سنة 1851م مصدرا لأنشطة الجهاد البحري، مما زاد من ضغوط القوى الأوروبية على المخزن بقصف العرائش سنة 1829م. وقد أشار المؤلف إلى الدور المحوري لرجال سلا في تكوين ذوي الخبرة في العلوم الهندسية المتعلقة بالبحر، بعد أن باشر المخزن إصلاحات القلع البحرية وتحصين المدينة لتأمين سلامتها من أي تدخل أجنبي محتمل عقب تعيين القائد بوعمرو فنيش سنة 1842م، إلى أن قصف الفرنسيون المدينة سنة 1851م. وهو العمل الذي أرجعه المؤلف إلى خلفيات ذات صلة بالصراع الفرنسي البريطاني، وبرر هذه الحملة العسكرية برغبة فرنسا في خلق توازن جيوسراتيجي، أمام تزايد أهمية النفوذ البريطاني في الدوائر المخزنية. وخلف هذا القصف خسائر فادحة في أبراج المدينة ومحيطها، على الرغم من المقاومة التي أبدتها السلويون وقيامهم بقصف مماثل للسفن الحربية الفرنسية، وأبرز الكاتب أهمية الذاكرة الشعبية في نظم قصائد الملحون حول مقاومة ساكنة المدينة.

وموازة مع ذلك، تابع الكاتب مراحل تطور بقية الأحداث التاريخية للمدينة، حيث عرف المغرب في أواخر القرن التاسع وبداية العشرين مخاضا لفكر إصلاحية متجدد، فرضته موجة التحولات السياسية الدولية التي أحاطت بالبلاد من مختلف الجوانب. وكان للضغوط الأوروبية أثرها الكبير في تدشين الوعي الإصلاحي، وبين المؤلف انخراط النخب السلوية في مشاريع الإصلاح الدستوري، نظرا لمعرفتهم الدقيقة بأوضاع المغرب في سياقات التدخل الأوربي. وقد لخص الكاتب أفكار رجالاته في معالجة

أوضاع المغرب ونظمه، باقتراح مشاريع إصلاحية على المخزن تهم التعليم وهياكل الجيش والإدارة، فأكد أنهم كانوا سابقين لصياغة أول مشروع دستوري بالمغرب على يد الحاج علي زنيبر السلوي الذي تأثر بالنظم الديمقراطية في إنجلترا.

وأمام اشتداد وطأة الضغوط الأجنبية، تعددت محاولات الاختراق الأجنبي لمدينة سلا، فتحدث الكاتب عن رفض أهل سلا إحداث بريد أجنبي بالمدينة، تحفظاً من أن يتحول إلى وسيلة قد تصبح في أيادي الأوربيين لالتقاط الأخبار والتجسس داخل أسوار المدينة. وشكل الاستيطان والحماية القنصلية مع مطلع القرن العشرين أحد عوامل استقرار الأجانب بسلا، وفصل المؤلف في علاقة السلويين بالحماية القنصلية، حيث دخلوا في مخالطة أعضاء البعثات القنصلية الأجنبية، خصوصاً الفرنسية والألمانية والانجليزية، واعتبرها المؤلف مؤشراً على بداية التغلغل الأوروبي إلى سلا، وسماه بالاختراق المحكم للمدينة، معتمداً في ذلك على إحصائيات سلطات الحماية في رصد مظاهر استقرار الفرنسيين والأجانب بالمدينة. وانتقل بنا المؤلف إلى التفصيل في مواقف أعيان سلا من أزمة الحكم بين الأخوين عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ، موضحاً بتفصيل حدة النقاش بين أعيان سلا حول الاختيار الأنسب لحماية مدينتهم، فبايعوا المولى عبد الحفيظ بتكليف الشاعر الحاج الطيب عواد لتحرير مسودة البيعة الحفيظية، مؤكداً أن البيعة الرباطية أسهمت في التمام شمل السلويين بعد مباركتهم لبيعة السلطان الجديد.

وختم المؤلف دراسته بالتفصيل في أهم مراحل الاحتلال الفرنسي ومقاومة القبائل وعلاقتها مع ألمانيا، ويرى أن الخطة العسكرية الفرنسية اتجهت صوب احتلال مصب أبي رقراق، لتسهيل رسو البوارج الحربية المكلفة بالدعم اللوجستيكي، بغية تسهيل مهام الجيوش المتوجهة براً إلى مدينة فاس، حيث مارس الفرنسيون درجات من التضييق الاقتصادي على سكان سلا بفرض المكوس عليهم بداية سنة 1911م. وأشار المؤلف إلى اتصال أعيان سلا بالقنصل الألماني المعتمد بالرباط للاستفسار عن التواجد العسكري الفرنسي بأبواب المدينة وأبراجها، فأوضح أن الدبلوماسية الألمانية أرغمت الجنود الفرنسيين على الانسحاب من أبراج المدينة. وعملت سلطات الحماية بعد توقيع معاهدة 30 مارس 1912م، على تطويع ساكنة سلا لحملها على الرضوخ وقبول الاحتلال بالقوة، وإدماجها في النظام البلدي المستحدث بالمغرب.

تلك إذن أبرز محاور هذا الكتاب الذي تكمن أهميته في منهجية المؤلف الرصينة التي وظفها بإحكام تمهيداً للإجابة خطوة تلو أخرى عن الإشكالية المطروحة في المقدمة، حيث

حالفه التوفيق في دراسة أعمق لتاريخ مدينة سلا التي أصر مع ذلك على وصفها في عنوان الكتاب بعبارة "المقفلة"، إشارة منه بذلك إلى خاصية التحفظ الزمن والاحتراز المتكرر المعهود من قبل السلويين، على وجه الخصوص، أمام كل ما هو دخيل، وأجنبي المصدر. كما نشمن جهود الباحث لاستثمار عينات مختلفة من المستندات غير المستغلة سابقا، ومنها الرصيد الوثائقي للخزانة العلمية الصبيحية، وملفات ذات أهمية من الوثائق الأجنبية، فضلا عن بعض ذخائر المخطوطات الدفينة المحفوظة في حوزة العائلات السلوية. وهذا ما مكنه من الإحاطة بالموضوع من مختلف جوانبه، وأغنى محتوياته بقضايا تاريخية في احترام تام للتحقيب الذي حدده في دراسة الموضوع. ويبدو واضحا من قراءة الكتاب، أن المؤلف على دراية وافية ومستفيضة ببحوث قضايا المتشابكة، وهو ما نستشفه من معرفته الواسعة بأعيان مدينة سلا وأعلامها، وكلها عوامل تضافرت في مقارنة تاريخ مدينة سلا الساحلية ومحيطها القبلي وعلاقتها بالتدخل الأوروبي، مع الحرص على إبراز ردود الفعل المخزنية والنخب الحضرية لمواجهة، ورصد أهم انعكاساته السياسية والاقتصادية والاجتماعية على المدينة. وبذلك، يشكل كتاب الباحث عز المغرب معينو مرجعا مفيدا للباحثين والمهتمين بالتاريخ البحري والحضري، ولا شك أنه قد يكون منطلقا علميا، لا يستهان به، لإنجاز بحوث أخرى تهم تاريخ بقية المدن الساحلية المغربية.

محمد أبيهي

جامعة محمد الخامس بالرباط